نشأة ونسبة الصوفية

مما لا يختلف فيه: أن الفكر الصوفي حادث في الإسلام..!!.

فقد مر عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وجيل الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين، وتابعيهم رحمهم الله، دون أن يكون لهذا الفكر أثر واضح، حتى حدث وظهر في نهاية القرن الثاني، والصوفية يقرون بهذا، لكن من جهة اللفظ دون المعنى، يقول النواوي:

"فأما كلمة التصوف، فقد أجمع الكاتبون في هذا المقام على: أنها من الكلمات الاصطلاحية، التي طرأت في أواخر القرن الثاني للهجرة"[1].

فالصوفية يقرون بأن مصطلح (الصوفية) حادث. لكنهم يقولون: الأحوال الصوفية موجودة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، تمثلت في أهل الصفة. ولأجله ذهب بعضهم إلى أن أصل التصوف مشتق من (الصُّفّة)، وهو مكان كان يأوي إليه الفقراء في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم. ومن ترجم منهم لأئمة التصوف: جعل أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضوان الله عليهم أوائل الصوفية، ونسب إليهم كلمات في المقامات والأحوال.

والوصف المشترك بين جميع من نُسبوا إلى التصوف من أئمة القرون الثلاثة الأولى هو: الزهد، والمجاهدة. الزهد في متاع الحياة الدنيا، ومجاهدة النفس لتهذيبها، ونفي عيوبها.

ونتيجة هذا: تمثل التصوف في الزهد والمجاهد. فكل زاهدٍ مجاهدٍ متصوفٌ، ومن له حال في الزهد والمجاهدة فهو: صوفي. هكذا قال بعضهم !!. لكنهم لم يتفقوا

على رأي واحد في أصل كلمة "صوفية" واشتقاقها، فما قرره بعضهم نُقضه آخرون، وقد رجعوا بالكلمة إلى أصول ستة أو سبعة، هي:

1- الصفّة.

وبهذا قال أبو عبد الرحمن السلمي: "التصوف مأخوذ من أهل الصفة"[2].

وقال الكلاباذي: "وقال قوم: إنما سموا: صوفية. لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم".[3]

وقال السهروردي: "وقيل: سموا صوفية. نسبة إلى الصفة.. وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي، ولكنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكلهم حال أولئك، لكونهم مجتمعين متألفين، متصاحبين لله، وفي الله، كأصحاب الصفة"[4].

2- الصفاء.

قال الكلاباذي: "قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله"[5].

وقال السهروردي: "قيل: كان الاسم في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك فجعل صوفيا".[6]

وذكر نيكولسون: أن جمهور الصوفية ذهبوا إلى أن الصوفي مشتق من الصفاء، وأنه أحد خاصة الله، الذين طهر الله قلوبهم من كدورات الدنيا [7].

3- الصف الأول.

قال الكلاباذي: "وقال قوم: إنما سموا صوفية. لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه".[8]

وقال السهروردي: "سموا صوفية، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه"[9]، كقول الكلاباذي.

4- الصوف.

يقول الطوسي: " نسبوا إلى ظاهر اللبس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام، والصديقين، وشعار المساكين المتنسكين"[10].

ويقول السهروردي: "ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام...فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة، وسترة العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال: تصوف؛ إذا لبس الصوف، كما يقال: تقمص؛ إذا لبس القميص"[11].

5- صوفة.

ذكر ابن طاهر المقدسي القيسراني بسنده إلى الحافظ أبي محمد عبد الغني بن سعيد المقدسي قال: "سألت وليد بن القاسم: إلى أي شيء نسب الصوفي؟، فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية.

قال عبد الغني: هؤلاء المعروفون بصوفة، هم ولد الغوث بن مر"[12].

قال ابن الجوزي: "كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مؤمن مسلم. ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه

وتعالى عند بيته الحرام، رجل يقال له: صوفة. واسمه الغوث بن مرٌ، فانتسبوا إليه، لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، فسموا بالصوفية".[13]

ثم ذكر أثر عبد الغني المقدسي الآنف الذكر، ثم قال: "وبالإسناد إلى الزبير بن بكار قال: كانت الإجازة بالحج للناس من عرفة إلى الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة، ثم كانت في ولده، وكان يقال لهم: صوفة. وكان إذا حانت الإجازة قالت العرب: أجز صوفة. قال الزبير: قال أبو عبيدة: وصوفة وصوفان. يقال: لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله، أو قام بشيء من أمر المناسك، يقال لهم: صوفة وصوفان.

قال الزبير حدثني أبو الحسن الأثرم عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: إنما سمي الغوث بن مر صوفة؛ لأنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت، فقيل له صوفة، ولولده من بعده"[14].

6- صوفانة.

قال ابن الجوزي: "وقد ذهب إلى أنه من الصوفانة، وهي بقلة رعناء قصيرة، فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء، وهذا أيضا غلط، لأنه لو نسبوا إليها لقيل: صوفاني.

وقال: آخرون: هو منسوب إلى صوفة القفا. وهي الشعيرات النابتة في مؤخره، كأن الصوفي عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق".[15]

7- النسبة إلى جميع ما سبق: الصف الأول، والصفة، والصوف، والصفاء.

نحا إلى هذا الرأي الكلاباذي، حيث صحح نسبة الصوفية إلى جميع ما ذكر باعتبار المعنى، وإن كان يقر باستحالة ذلك لغة، قال:

- "وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف، فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا...

- ومن نسبهم إلى الصفة والصف الأول، فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم...

- فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها، ومعاني هـذه الأسـماء كلهـا في أسـامي القوم وألقابهم، وصححت هذه العبارات، وقربت هذه المآخذ.

- وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر، فإن المعاني متفقة:

- لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت: صفوية.

- وإن أضيفت إلى الصف والصفة، كانت: صَفية، وصُفية.

- ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الـصوفية[16]، وزيادتهـا في لفظ: الصَفية. والصُفية إنما كانت من تداول الألسن.

- وإن جعل مأخذه من الصوف، استقام اللفظ، وصحت العبارة مـن حيـث اللغة.

- وجميع المعاني كلها من التخلي عـن الـدنيا، وعـزوف الـنفس عنهـا، وتـرك الأوطان ولزوم الأسفار"[17].

وصنيع الكلاباذي ليس بغريـب عـلى الـنهج الـصوفي، فقـد رأينـاه في كـلام السهروردي حينما قال: "قيل: كان الاسم في الأصل صفوي، فاسـتثقل ذلـك فجعـل صوفيا".[18]

والملاحظ في كلامه ؟؟!!.. افتراض أن أصل الكلمة هي:

- صَفيّة من الصف.

- وصُفيّة من الصفة.

- وصفوية من الصفاء.

وإنما انقلبت إلى (صـوفية) بـسبب تـداول الألـسن، حيـث زادت الـواو في: صَفيّة، وصُفيّة.

وتبادل الواو والفاء المواقع في:صفوية..!!.

وهذا قول يحتاج إلى دليل، ولم يستند إلى شيء، ولم أره لغيره.

* * *

obeikandi.com

- نقد الصوفية لهذه التعريفات.

أكثر هذه الأقوال رواجا: النسبة إلى الصفاء. فقد ذكر نيكلسون: أن مقابل كل تعريف ينسب الصوفية إلى الصفة: اثني عشر تعريفا ينسبها إلى الصفاء، وذلك بالنظر في تعريفات الأئمة الصوفية، في الفترة الممتدة بين عام200 إلى 440 هـ، وقد نقلها في كتابه، ثم قال:

"يتبين من النظر في التعريفات أن الزمن الذي وضعت فيه يكاد يقرب من قرنين ونصف؛ لأن أولها هو تعريف معروف الكرخي المتوفى سنة 200هـ، وآخرها تعريف أبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة 440هـ. ويتبين أيضا أنها تعريفات من أنواع مختلفة:

- إذ منها الثيوسوفي المتصل بأحوال الصوفية.
- ومنها المتصل بوحدة الوجود.
- كما أن منها الأخلاقي اللغوي، وهو ما أشبه بالحكم.

وليس في عصرنا الحاضر من ينكر اشتقاق كلمة الصوفي من الصوف، ولكن الناظر في التعريفات التي ذكرناها، سيظهر له في وضوح، أن الصوفية أنفسهم لم يأخذوا بهذا الرأي، فإنا نجد في مقابل كل تعريف، ينسب الصوفية إلى لبس الصوف، اثني عشر تعريفا، يشير إلى اشتقاق كلمة الصوفي من الصفاء"[19].

فهذا ما اشتهر في تعريفات من تقدم من الأئمة المتصوفة: النسبة إلى الصفاء.

فهو التعريف الشائع المشهور، أما من بعدهم، فقد صاروا إلى ترجيح النسبة إلى الصوف، على الرغم من أن أئمة الصوفية لم يأبهوا لهذا الرأي، كما ذكر نيكلسون آنفا، وكما يذكر القشيري والهجويري.

ثم تأتي في المرتبة بعدهما النسبة إلى الصفة وإلى الصف الأول، فقد قال بها جمع من المتقدمين، لكن يبدو أن القائلين بالنسبة إلى الصفة أكثر.

وأما النسبة إلى الصوفة، فهي تأتي على معنيين:

- الأول: نسبة إلى رجل يدعى: صوفة. وهو الغوث بن مر بن أدّ.

obeikandl.com

- الثاني: نسبة إلى صوفة القفا، وهي: شعيرات مهملة في قفا الرأس.

فهذه النسبة، والنسبة إلى الصوفانة: بقلة تنبت في الصحراء. قد ذكرت، لكن ليس على ألسنة المتصوفة، وليس لها ثقل يوازي الأربعة الأولى، وإن كانت الأربعة فيما بينها متفاوتة، على ما سبق تفصيله.

ويلاحظ أن جميع النسب السابقة لا تصح لغة، باعتراف أئمة التصوف، وإن كان ثبوتها أو بطلانها لغة لا تشترط فيها شهادتهم، بل يرجع إلى اللغة، غير أن إقرارهم مفيد في كل حال.

يقول القشيري: "هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي. وللجماعة: صوفية. ومن يتوصل إلى ذلك، يقال له: متصوف. وللجماعة: المتصوفة.

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية: قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه: أنه كاللقب.

- فأما قول من قال: إنه من الصوف. ولهذا يقال: تصوف. إذا لبس الصوف. كما يقال: تقمص. إذا لبس القميص. فذلك وجه، لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

- ومن قال: إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي.[20]

- ومن قال إنه مشتق من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة.

- وقول من قال: إنه مشتق من الصف. فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

ثم إنه هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ، واستحقاق اشتقاق".[21]

يلخص القشيري رأيه في كلمات:

"وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية: قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه: أنه كاللقب".

لقد رفض هذه النسب جميعا لغة واشتقاقا، ولم يأبه للنسبة إلى الصفة والصفاء من حيث المعنى، إلا الصف، فصحح المعنى، ورد الاشتقاق. وأما الصوف فقد صحح الاشتقاق منه لغة، لكنه حكم ببطلان النسبة إليه !!.. علل ذلك: بأن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

فالنسب كلها باطلة لغة إذن، يستثنى منها:

- النسبة إلى الصوف.
- والنسبة إلى صوفة.

فهاتان النسبتان صحيحتان لغة، لكن الثانية منها غير مشهورة، فأئمة التصوف، كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري، والسهروردي وغيرهم، لم يذكروها ألبتة، فهي مطّرحة عندهم إذن، ويشكل عليها: أن لقب (صوفية) لم يعرف ولم يشتهر إلا في القرن الثاني، بينما هؤلاء الزهاد والعباد ظهروا في فترة مبكرة في القرن الأول في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فلو كان هذا اللقب مستمدا من هذا الاسم (صوفة) فلم لم يطلق عليهم في ذلك الوقت؟، ولم تأخر حتى منتصف القرن الثاني إلى نهايته؟. فالاسم (صوفة) موجود منذ الجاهلية، والمنقطعون الزهاد العباد موجودون، ومع ذلك لم يطلق عليهم اسم (صوفية) حتى حل القرن الثاني، ومر نصفه، ثم بدأ هذا الاسم بالظهور، كما ثبت بالبحث التاريخي، فهذا مما يضعف هذه النسبة.

- فلم تبق نسبة صحيحة منها، من حيث اللغة، سوى النسبة إلى الصوف.

فهذه مقبولة لغة، أما من حيث المعنى فقد رُدّت كذلك بأقوال أقطاب التصوف، كالقشيري والهجويري، وإن كانت مقبولة عند غيرهما كالطوسي والسهروردي.

والنتيجة التي نخرج بها من هذا العرض: أن الصوفية لم يتفقوا على نسبة معينة، فإذا اطرحنا ما ثبت بطلانه لغة، وهو الواجب، لأنه لا وجه لإثبات نسبة خاطئة لغة إلا سفسطة، بقيت النسبة الصحيحة لغة: (الصوف). وهذه أيضا لم تسلم

من النقد والرد، وكان علة ذلك، كما ذكر القشيري: أن القوم لم يختصوا ولم يشتهروا به. قال: "القوم لم يختصوا بلبس الصوف"[22].

وهذه شهادة خطيرة، فيها نقض لقول من ادعى أن الصوفية اشتهروا بلباس الصوف، شهد بها إمام عارف من أئمة الصوفية المتقدمين، العارفين بأحوال بدايات التصوف، حيث عاش في القرنين الرابع والخامس (377-465)، فهو من الجيل الثالث أو الرابع، والتصوف إنما نشأ في هذه الأجيال الممتدة ما بين القرن الثالث إلى الخامس، وكل ما لم يكن في هذه الفترة فليس من التصوف قطعا؛ لأن أهلها هم أئمة المذهب، وواضعوا أسسه، لا يختلف على هذا أحد.

ومما يعطي الشهادة قيمة أكبر، أنا لم نسمع بإمام صوفي انبرى للرد عليه وإبطال زعمه هذا، فسكوتهم دليل موافقتهم له، ويبعد أن يكونوا غير مطلعين على كتابه، بل يستحيل، فكتابه (الرسالة) من أشهر كتب التصوف، فمن الذي لا يعرفه من الصوفية؟!.

بل سايره على هذا الرأي، ووافقه: إمام آخر معاصر له هو الهجويري ، حيث قال: "واشتقاق هذا الاسم لا يصلح على مقتضى اللغة، من أي معنى، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس يشتق منه، وهم يشتقون الشيء من شيء مجانس له، وكل ما هو كائن ضد الصفاء، ولا يشتق الشيء من ضده، وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله، ولا يحتاج إلى العبارة "[23].

- القول الراجح في نسبة الصوفية.

بقيت نسبة أخيرة لم يذكرها أحد من المتصوفة..!!..

فقد رجع بعض الباحثين والمؤرخين، المختصين بعلوم الديانات القديمة: الهندية والفلسفية. من غير المتصوفة، بالكلمة إلى أصل يوناني، هو كلمة: (سوفيا)، ومعناها: الحكمة.

وأول من عرف بهذا الرأي: البيروني في كتابه: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وتبعه عليه جمع، خصوصا الباحثين المعاصرين، وفيما يلي أقوال الذين يقررون أجنبية المصطلح والفكرة عن البيئة الإسلامية:

1- يقول أبو الريحان البيروني مبينا أصول التصوف في الفكر الفلسفي الهندي: "ومنهم من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط، لاستغنائها بذاتها فيه، وحاجة غيرها إليها، وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق، والحق هو الواحد الأول فقط.

- وهذا رأي (السوفية) وهم الحكماء، فإن (سوف) باليونانية الحكمة، وبها سمي الفيلسوف (بيلاسوبا)، أي محب الحكمة.

- ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم، سموا باسمهم، ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى (الصفة)، وأنهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صُحّف بعد ذلك، فصُيّر من صوف التيوس"[24].

2- وبهذا قال كل من: المستشرق الألماني فون هامر، ومحمد لطفي جمعة، وعبد العزيز إسلامبولي، ذهبوا إلى ما ذكره البيروني آنفا.[25]

3- المستشرق نيكلسون في كتابه: (الصوفية في الإسلام) قال: "وكلمة Mystic التي انحدرت من الديانة الإغريقية إلى الآداب الأوروبية، يقابلها في العربية والفارسية والتركية، لغات الإسلام الثلاث الرئيسة، كلمة (صوفي)، واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماما، لأن للفظة الصوفي مدلول ديني خاص، وقد قيدها بالصوفية الذين يدينون الدين الإسلامي، والكلمة العربية وإن اكتسبت على مدى الأيام مدلول الكلمة الإغريقية الواسع: شفاه مقفلة بالأسرار القدسية، وعيون مغمضة على النشوة الحالمة؛ إلا أن مدلولها كان متواضعا، يوم جرت على الألسنة لأول مرة، حوالي نهاية القرن الثاني الهجري"[26].

- الشاهد من كلامه: أن الكلمة اكتسبت مدلول الكلمة الإغريقية على مدى الأيام، فهذا الرأي يرجع بمضمون الفكرة إلى جهة إغريقية، وهذا هو المهم.

4- إبراهيم هلال قال: "على أن الأصل في تسمية هذا المذهب بالتصوف، وأصحابه بالصوفية، يوقفنا على أن التصوف في أصله إنما هو استيراد أجنبي، ليس

للإسلام فيه شيء، لا في نشأته، ولا في طريقته المتزيدة، ولا في غايته أو غاياته المتعددة"[27].

5- الدكتور محمد جميل غازي، الذي قال: "الصوفية كما نعلم اسم يوناني قديم مأخوذ من الحكمة (صوفيا) وليس كما يقولون إنه مأخوذ من الصوف".[28]

6- إحسان إلهي ظهير حيث ذهب إلى أنه لا اعتدال التصوف.[29]

7- المقبلي قال: "فالتصوف ليس من مسمى الدين، لأن الدين كمل قبله، أعني دين الإسلام، ولا هو من النعمة، لأنها تمت قبله، وليس التصوف داخلا في مسمى الإسلام، لأن الإسلام تم قبله، وهم معترفون بالغيرية، فحينئذ هو بدعة ضلالة"[30].

ولهذا الرأي أدلة ترجحه على النسب السابقة، وبخاصة النسبة إلى الصوف، فمن ذلك:

أولا: التشابه ما بين كلمتي (صوفية) و (سوفية) في اللفظ والرسم، وجواز التبديل بين حرفي السين والصاد.

ثانيا: اتحاد مدلول الكلمتين: (سوفية)، (صوفية)؛ فمدلولهما: الحكمة. يبين هذا:

- أن الصوفي عند الصوفية هو الحكيم، وهو صاحب الحكمة. لذا يكثر دورانهم على هذا المعنى، ويجعلونه وصفا لازما للصوفي، فمن لم يكن حكيما فليس له حظ من اللقب، هكذا يقرر ابن عربي – وغيره – فيقول: "ومن شروط المنعوت بالتصوف: أن يكون حكيما ذا حكمة. وإن لم يكن، فلا حظ له من هذا اللقب"[31].

- وكلمة (سوف) باليونانية تعنى الحكمة كذلك، والفيلاسوف هو محب الحكمة، وفق ما ذكر البيروني آنفا..

فإذا كانت (الحكمة) هي (التصوف)، و (الحكيم) هو (الصوفي).. و (الحكمة) هي (سوف)، و(الحكماء) هم (السوفية)، فأي اتفاق بعد هذا؟..

يقول نيكلسون:

"بعض الباحثين من الأوربيين يردها إلى الكلمة الإغريقية: سوفوس، بمعنى ثيوصوفي".. [32]

وكلمة "ثيوصوفي" معناها: الحكمة الإلهية. (ثيو = إله)، (صوفي = الحكمة).[33]

ويقول عبد الواحد يحيى، وهو فرنسي معاصر، أسلم وتصوف:

"وأما أصل الكلمة، فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا، ووضعت فروض متعددة، وليس بعضها أولى من بعض، وكلها غير مقبولة، إنها في الحقيقة تسمية رمزية.!!.

وإذا أردنا تفسيرها، ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ: أن القيمة العددية لحروف (صوفي)، تمثل القيمة العددية لحروف (الحكيم الإلهي). فيكون الصوفي الحقيقي إذن هو:

الرجل الذي وصل إلى الحكمة، إنه (العارف بالله)، إذ أن الله لا يعرف إلا به"[34].

وتأتي قيمة هذا النص، من كونه في نظر الدكتور عبد الحليم محمود: صوفيا متحققا بالتصوف، من العارفين بالله.[35] وهذه شهادة من صوفي كبير، لا خلاف في إمامته، وعليه فهذا الفرنسي المسلم المتصوف، إنما يعبر عن التصوف بعمق وإدراك لحقائقه إذن. وهكذا كل من تبحر في التصوف، وجد نفسه أمام هذه النتيجة ولا بد.

ثالثا: مضمون التصوف يوافق مضمون الفلسفة (سوفية)، فكلاهما يرميان إلى التشبه بالإله، وهذا يتبين من تعريف (التصوف) و (الفلسفة) :

- قال الجرجاني: "الفلسفة التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية، لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر الصادق صلى الله عليه وسلم في قوله: (تخلقوا بأخلاق الله)[36]؛ أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات، والتجرد من الجسميات"[37].

- جاء في اصطلاحات الصوفية للكاشاني: "التصوف: هو التخلق بالأخلاق الإلهية"[38].

- وابن عربي يقول: "فاعلم أن التصوف تشبيه بخالقنا لأنه خلق فانظر ترى عجبا".[39]

فالتشبه والتخلق أمرهما واحد هو: التمثّل. فالمتشبه بشيء ما: يتمثل صفاته. والمتخلق بخلق شيء ما: يتمثل صفاته.

رابعا: كان عند قدماء اليونان: مذهب روحي يعتنقه النساك والزهاد، ينأون بجانبهم عن الدنيا، ويلجئون إلى أنواع المجاهدات والرياضات الروحية، يتقربون بأرواحهم إلى خالقهم، لتلقي الحكمة والمعارف القدسية، كان يطلق عليهم لقب: (تيو صوفية)، ومعناه: الحكماء الإلهيون. وإذا تأملنا هذا المذهب، وما يدعوا إليه الصوفية، وجدناهما سواء، كما أنهما سواء في اللقب.[40]

خامسا: من هذا القبيل طائفة من الهنود القدامى، كانوا يعرفون باسم: (جيمنو صوفيا) ومعناه: الحكيم العاري. كانوا يقضون حياتهم في السياحة، متأملين الله تعالى. وهذا أيضا مذهب يعتنقه الصوفية الإسلام: السياحة، والتأمل.[41]

إذن هي فكرة قديمة، تجتمع كلها في لقب الحكمة (= صوفية، أو سوفية).

* * *

ولهذا الرأي إشارة محتملة في كلام القشيري والهجويري، اللذين قررا أنها كلمة جامدة غير مشتقة، وربما سبب جمودها كونها أعجمية.. نعم يوجد في العربية ألفاظ جامدة، والكلمات المعرّبة كذلك جامدة، وليس هذا بحثنا، إنما تحرير كلام هؤلاء الذين نفوا اشتقاقها، فإنه يحتمل الإشارة إلى أجنبيتها، فلنعد النظر فيما قاله القشيري والهجويري في هذا المقام:

قال القشيري: " وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب .. القوم لم يختصوا بلبس الصوف"[42].

- وقال الهجويري: "واشتقاق هذا الاسم لا يصلح على مقتضى اللغة، من أي معنى"[43].

- وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره المستشرق نيكلسون بقوله: "ولكن الناظر في التعريفات التي ذكرناها، سيظهر له في وضوح، أن الصوفية أنفسهم لم يأخذوا بهذا الرأي، فإنا نجد في مقابل كل تعريف، ينسب الصوفية إلى لبس الصوف، اثني عشر تعريفا، يشير إلى اشتقاق كلمة الصوفي من الصفاء"[44].

إذن النتيجة المهمة هنا:

- أن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

- ولا يشهد لاسم (صوفية) من حيث العربية، قياس ولا اشتقاق.

- والصوفية لم يأخذوا بهذا الرأي.

فالقشيري استظهر أنه لقب، ومنع هو والهجويري أن يكون له أصل لغوي..!!.

كل هذه إشارات إلى أعجمية الكلمة، وإن لم يصرحا بذلك، وإن حاولا التفلت من هذه النتيجة، بأشياء، من قبيل تعظيم الاسم أن يكون له جنس يشتق منه، كما فعل الهجويري، غير أن هذا التسليم، بمنع اشتقاق الكلمة لغة، مع استظهار القشيري أنها لقب، يرجح أن الكلمة أعجمية، يدل على هذا: أن أحدا من أهل اللغة لم يقل في هذه الكلمة أنها جامدة، كما قيل في لفظ الجلالة "الله". بل الذي قالوه إنها كلمة مولدة، يقول أحمد المقرئ:

- " تصوف الرجل، وهو صوفي، من قوم صوفية، كلمة مولدة"[45].

وكأنهما عرفا بذلك، وهذا محتمل، لكن لم يكن من السهولة التصريح بأن أصل الكلمة يونانية فلسفية، تدل على مذهب قديم، له قواعد وأصول معروفة، تتشابه مع أصول الصوفية في الإسلام، فمثل هذا لا يمكن أن يفصح به إمام صوفي، وإلا كان عونا على نقض مذهبه!!.

فالكلمة إذن ليست عربية، بل هي يونانية، أصلها: (سوفية)، لما دخلت إلى العربية، بدخول فلسفتها ومضمونها، غُيّر حرف السين فأشبع فصُيّر صادا، إما عمدا أو اتفاقا، لقرب المخارج، فدخلت الكلمة في العربية لفظا ومعنى، ساعد عليه جواز قلب السين صاد في اللغة العربية[46].

واستفادوا من هذا التحوير: التعمية والتضليل عن أصل الفكرة. فهم (صوفية) في الظاهر، نسبة إلى اللباس، وفي الباطن (سوفية) نسبة إلى الفلسفة اليونانية الهندية، يقول الدكتور عمر فروخ: "كانوا، في حال اجتماعهم مع غيرهم، يحافظون على ظاهر الدين الإسلامي، وعلى فرائضه، أما في خلواتهم، وفيما بينهم، فكان لهم أشياء يستحي العاقل من ذكرها".[47]

* * *

الهوامش:

---

[1] – مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف ص4.. ويقول أحمد المقرئ: " تصوف الرجل، وهو صوفي، من قوم صوفية، كلمة مولدة". المصباح المنير ص134

[2] – تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ص365.

[3] – التعرف ص27.

[4] – عوارف المعارف 5/ 84.

[5] – التعرف لمذهب أهل التصوف ص26.

[6] – عوارف المعارف 5/ 84، ذهب إلى هذا الرأي الكلاباذي في التعرف، وسيأتي كلامه.

[7] – انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه ص66.

[8] – التعرف ص26–27.

[9] – عوارف المعارف 5/ 84.

obeikandl.com

[10] - اللمع ص41.

[11] - عوارف المعارف، ملحق بـ لإحياء 5/ 83، وقد ذهب إلى هـذا الـرأي شيخ الإسلام ابن تيمية 11/ 195، وابن خلدون في المقدمة ص467.

[12] - صفوة التصوف ص154.

[13] - تلبيس إبليس ص161.

[14] - تلبيس إبليس ص161،162.

[15] - تلبيس إبليس ص163.

[16] - هكذا في الكتاب، ويفترض أن تكون: "صفوية".

[17] - التعرف 27-32.

[18] - عوارف المعارف 5/ 84، ذهب إلى هذا الرأي الكلاباذي في التعرف، وسيأتي كلامه.

[19] - في التصوف الإسلامي وتاريخه ص28، وكلمة "ثيو سوفي" يونانيـة، معناها الحكمة الإلهية، ثيو (Theism) : الإله ؛ سوفي (Sophy):الحكمة..

انظر: المعجـم الفلـسفي 1/ 360 (مـادة: التوحيـد)، المـورد ص 879 (مـادة Sophy) .

[20] - ومن جهة المعنى كذلك ، فلم يكن أهـل الـصفة متـصوفة، ولا خـبر لهم بأفكار الصوفية، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في إبطال تصوف أهـل الـصفة. انظر الفتاوى 11/ 37،71.. قال ابن الجوزي: "وهؤلاء القوم إنـما قعـدوا في المـسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عـن تلـك الحال، وخرجوا، ونسبة الصوفي إلى أهل الـصفة غلـط، لأنـه لـو كـان كـذلك لقيـل: صفي" تلبيس إبليس ص162،163.

[21]- الرسالة 2/ 550-551.

[22] - الرسالة 2/ 550،551 .

[23] - كشف المحجوب 1/ 230،231.

[24]- تحقيق ما للهند من مقولـة مقبولـة في العقـل أو مرذولـة ص27، وفي قول البيروني جواب لقول من قال: لـو كـان "صـوفي" مـأخوذ مـن "سـوفيا" لقيـل: "سوفي"، انظر التصوف في الإسلام، عمر فروخ ص24،29.

[25] – انظر: التصوف المنشأ والمصادر ص33، قضية التصوف، المنقذ من الضلال، ص32.

[26] –ص10، عن كلمة (Mystic) ومعناها، ومرادفاتها في اللغات الأخرى، انظر: المعجم الفلسفي 1/ 747،282.

[27] – قطر الولي ص181.

[28] – الصوفية الوجه الآخر ص47.

[29] – التصوف المنشأ والمصادر ص6.

[30] – العلم الشامخ ص470.

[31]– الفتوحات المكية 2/ 266.

[32] – الصوفية في الإسلام ص11.

[33] – كلمة "ثيو سوفي" يونانية، معناها الحكمة الإلهية، ثيو (Theism): الإله؛ سوفي (Sophy):الحكمة..

انظر: المعجم الفلسفي 1/ 360 (مادة: التوحيد)، المورد ص 879 (مادة Sophy) .

[34]– قضية التصوف، المنقذ من الضلال، عبدالحليم محمود، ص32، وانظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي 1/ 359. والمذكور فرنسي الأصل، كان اسمه: رينيه جينو. انظر: م.س قضية التصوف

[35] – انظر: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ص281.

[36] – سيأتي تخريجه: ص197 من هذه الرسالة.

[37]– التعريفات ص73.

[38] – ص164.

[39] – الفتوحات 2/ 266.

[40]– انظر: أضواء على التصوف، طلعت غنام ص66.

[41] – نشأة الفكر الفلسفي 3/ 42.

[42] – الرسالة 2/ 550،551 .

[43] – كشف المحجوب 1/ 230،231.

[44] – في التصوف الإسلامي وتاريخه ص28.

obeikandl.com

[45] – المصباح المنير ص134.

[46] – شاهد هذا ما ورد عن أئمة القراءات جواز قراءة قوله تعالى: {اهـدنا الصراط المستقيم}، بالسين بدل الصاد.

[47] – التصوف في الإسلام ص20–21.

***

obeikandl.com